

الحرب والاحتلال وأثرهما على خصوبة المرأة

د/ نادية محمد السعيد الدمياطي(*)

تؤثر عوامل التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الخصوبة بصورة غير مباشرة عن طريق التأثير في عدد من العوامل الوسيطة التي يغلب عليها الطابع البيولوجي، وأبرزها معدل الزواج وسن الزواج والإرضاع الطبيعي. وتضم عوامل التنمية التحضر والتصنيع ورفع مستوى التعليم، وتحسين الأحوال الصحية والمعيشية، وخفض معدلات وفيات الأطفال، ورفع مكانة المرأة الاجتماعية، ومشاركتها في العمل المأجور.

عند تطبيق هذه النظريات على المجتمعات العربية تبين أن معظم عوامل التنمية المذكورة آنفاً تؤثر بمعدلات الإنجاب؛ فالتحضر ونصيب الفرد من الناتج القومي، وانخفاض معدلات الوفيات، واستيراد البضائع الاستهلاكية الحديثة من الغرب، وتوسيع شبكة الاتصال والإعلام، وربطهما بالعالم الغربي، ليست عوامل كافية للتأثير على خصوبة المرأة العربية، والعامل التنموي الوحيد الذي أثبت أهميته في التأثير بمعدلات الإنجاب في بعض الدول العربية هو المستوى التعليمي للمرأة.

أما عن دور الحروب والاحتلال في التأثير بالخصوبة البشرية، فنجد أن بعض المناطق العربية التي عانت أكثر من غيرها من ويلات الحروب والاحتلال مثل فلسطين، العراق، لبنان، السودان، الصومال، كشمير شهدت انخفاضاً أكبر في معدل المواليد من بعض المناطق العربية الآمنة نسبياً، بصرف النظر عن المستوى الاقتصادي والاجتماعي لهذه المناطق العربية. وإذا أخذنا دور الحرب والتنمية معاً؛ فالفرضية تقول إن ارتباطهما بالخصوبة عكسي، فكما ازدادت معاناة الناس من جراء الحرب في منطقة ما، أو كلما ارتفع مستواه التنموي، انخفضت فيها الخصوبة.

وتأثير الحرب والاحتلال في الخصوبة ناتج عما فعلته الحروب في خصائص الأسرة وعلاقتها وقيمها الاجتماعية لاسيما الإنجابية، ففي المناطق العربية التي عانت ظروف الاحتلال والحرب القاسية لاسيما في فلسطين، ولبنان، ودارفور بالسودان تأقلم السكان

(*) باحثة بمراكز البحوث والإنتاج - وزارة التعليم العالي

مع الواقع الجديد بإجراء تغييرات هامة في حياتهم الاجتماعية.

لقد نشأت إبان المعارك والاحتلال الطويل التي قضاها الناس في الملاجيء علاقات اجتماعية جديدة تختلف عن العلاقات الأسرية التقليدية؛ فالمرء وقت الشدة حين يصبح الموت أمامه قاب قوسين أو أدنى وهو بعيد عن أفراد أهله أو عشيرته أو أقربائه، يسعى جاهداً في البحث عن جار قريب يشاطره محتته، أو يقدم له العون إذا ما حلت به، أو دون أن يتمكن أقرب أقربائه من مساعدتهم، أو الوصول إليهم، في حين اندفع جيرانهم لمساعدتهم على خير وجه.

إن ضعف تأثير العشيرة والأسرة الممتدة على حياة وسلوك الزوجين، في الوقت الذي تمت فيه علاقاتهم الاجتماعية الجديدة مع الجيران، عامل هام قد يساهم في نشوء أو تدعيم سلوك إنجابي جديد، يقوم على الأسرة صغيرة الحجم؛ فالأسرة الممتدة في المشرق العربي عامل أساس في استمرارية الخصوبة المرتفعة نظراً لتجسيدها التنظيم الاجتماعي الذي يتميز بالقيم المشجعة للإنجاب المرتفع.

وكما أسهم الاحتلال والحروب في ترعرع هذه العلاقات الجوارية المميزة بين القاطنين في نفس المبني أو الشارع، دفعت الناس أيضاً لاسيما في فلسطين والعراق ولبنان وكشمير إلى مستوى مرتفع من الذاتية والفرديّة، فالشعور بخطر الموت المحيق يعش هذه الصفات لدى الإنسان تماماً، كما صور القرآن الكريم تصرفات الناس من هول يوم القيامة حين يفر الإنسان من أقرب الناس إليه؛ لأن لديه همّاً يكفيه (يَوْمَ يَقْرَأُ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ) (عبس: ٣٣: ٣٧)

وروايات الناس ومشاهداتهم تتحدث عن أمهات هربن من منازلهن ساعة احتدام المعارك، تاركات وراءهن واحداً أو أكثر من أطفالهن، وعن أبناء شبان لم يخاطروا بحياتهم لإنقاذ والديهم من الموت، في مثل هذه الساعات العصيبة، يفكر المرء أولاً بالحفاظ على حياته هو، وقلّة من الناس تخاطر بحياتها لإنقاذ الآخرين حتى ولو كان الآخرون أحب الناس إليهم وأقربهم منهم.

في ضوء هذه المتغيرات، يصبح الأولاد العديدون عبئاً كبيراً على الوالدين لاسيما إذا كانوا أطفالاً. فالأسرة التي لديها عدد كبير من الأطفال يصعب عليها التنقل السريع من

منزل إلى آخر، أو من منطقة تشهد معارك طاحنة إلى منطقة أخرى أكثر أمناً، علاوة على ذلك كانت هناك صعوبة في تأمين الحاجات المعيشية الأساس في مدينة تنقطع عنها بعض المواد الغذائية والاستهلاكية الضرورية من وقت إلى آخر، في حين تنتعش السوق السوداء والأسعار الخيالية لهذه السلع.

وهكذا يمكن الاستنتاج بأن دور الحرب والاحتلال في خفض الخصوبة هام في الحالة التي يكون فيها العنف متواصلاً لفترة طويلة، وشرساً ومدمراً، أما في حالة عدم الاستقرار الأمني الذي تصاحبه معارك منقطعة ذات الأثر التدميري المحدود مع وجود فترات طويلة من الأمان والسلم؛ فإن ارتباط الحرب بالخصوبة غير هام، لكن تأثير الحرب والاحتلال في مناطق فلسطين والعراق ولبنان في الخصوبة البشرية واختلافاتها هو أساس غير مباشر، وذلك عن طريق التأثير في عوامل أخرى اقتصادية واجتماعية ونفسية. ورغم غياب الدراسات الاختيارية التي تقيس هذه العوامل، فالمشاهدات التي نشاهدها يومياً عبر الفضائيات والتقارير الصحفية التي تنشر يومياً عبر الصحف والمجلات تلقي بعض الضوء على ذلك.

والسؤال الذي يرد في الذهن الآن: هل أثر الحرب والاحتلال على خصوبة المرأة عارض أم دائم؟ لا شك أن الموضوع قابل للنقاش، فآثر الحرب العالمية الثانية في انخفاض الخصوبة في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية قد زال بزوال الحرب، فعاد الناس إلى التزاوج والتكاثر بصورة ملحوظة، ولسنوات محدودة، لكن انسحاب هذه التجربة العالمية على الوضع الفلسطيني، أو اللبناني، أو العراقي، أو الكشميري، أو في مناطق دارفور السودانية ليست بالضرورة مؤكداً أو حتى وارداً، فامتداد الحرب والاحتلال في بعض المناطق العربية لسنوات عديدة ساهم في نشوء عادات جديدة لها قوة استمرار ترتفع كلما طال أمد الحرب أو الاحتلال، وكما اعتاد الناس على انقطاع الكهرباء، واستبدال كثير منهم خدمات الدول بمولدات خاصة، واستعاض آخرون عن خطوط التليفون العامة بأجهزة الجوال أو المحمول أو النقال، كذلك يمكن للأزواج أن يعتادوا على عدد قليل من الأولاد، ويمكن للناس أن يجذبوا زواج البنت في سن متقدمة.

إن مثل هذه التغيرات السلوكية ترتدي طابعاً خاصاً هو أقرب إلى الدوام منه إلى

العرضية، فإيجابيات الأسرة الصغيرة في ظل الظروف الاقتصادية والاجتماعية السائدة في العالم المعاصر تفوق إيجابيات الأسرة الكبيرة، ووعي الناس لاسيما المرأة مرشح للنمو نظراً لأن فاعلها نحو مزيد من التحصيل العلمي العالي وإصرارها على مشاركة الرجل في صنع القرارات الأساس للأسرة، فضلاً عن احتكاكها اليومي بوسائل الإعلام العالمية التي ثبت عبر الفضائيات والأثمار الصناعية التي تعجدها الخصوبة المتدنية والزواج المتأخر، وتنهى الناس عن الخصوبة المرتفعة والزواج المبكر بهدف التقليل من عدد سكان العرب والمسلمين؛ لأنهم يريدون أن زيادة عدد سكان العرب والمسلمين جانب إيجابي للسدوة الإسلامية وانتشارها، وهذا يسبب لهم خطورة على تواجدهم في المناطق العربية المختلفة مثل فلسطين والاحتلال الصهيوني.